القصة في سياق التدافع الحضاري

تقدم هذه الورقة تأملات في القصة من حيث موقعها في التدافع الحضاري، وما ينبغي أن تكون عليه ليكون التدافع على بصيرة، ومن أجل ذلك اختارت أن تنشغل بالكليات من خلال خمس وقفات هي:

- الانسجام الكوني.
- الاقتداء الدائم.
- الخروج من التيه.
- الفاعلية والإيجابية.
- الامتداد والانفتاح.

د. الحسين زروق - المغرب

أولا: الانسجام الكوني.

القصة باعتبارها جنسا أدبيا «تعبير موح عن قيم حية ينفعل بها ضمير الفنان»[١]، ومن ثم لا تملك إلا أن تكون منبثقة عن تصور معين للحياة ومعبرة عنه، ومن نافلة القول: إن مصدر التصور للحياة يختلف باختلاف المرجعيات.

تقدم المرجعية – أي مرجعية – في مجال التعبير الأدبي مثلا ثلاث فوائد على الأقل:

- توفر أرضية الانطلاق.
- توفر إطارا للتعبير.
- تسمح بنقد ذلك التعبير وفق المسافة التي تربطه بالمرجعية أو تفصله عنها.

بمعنى أنها تصير ضرورية، واحترامها بدهي، إلا نفعل يكن التيه. والتيه في مجال التعبير الهادف إلى التأثير له آثاره، التي قد لا يمكن تداركها.

إضافة إلى ما سبق تحدد طبيعة علاقتنا بالمرجعية التي نؤمن بها وندافع عنها طبيعة وجودنا أصلا، ثم وزننا في سياق التدافع مع الأمم الأخرى، وعندما تكون لنا مرجعيتنا الخاصة يتطلب الأمر منا تحديد موقفنا من الآخر انطلاقا منها ومن موقفه هو الآخر ومرجعيته، ويجعلنا ذلك نعتبرها أهم ضمان لاستقلالنا، لأن تفريطنا فيها هو تفريط في بوصلة الإبحار في عالم مليء بالمرجعيات المتنافسة، فمن يفرط في مرجعيته في ظل هذا الواقع؟

تلك هي إذا قيمة المرجعية في سياق التدافع، بما في ذلك التدافع القصصي، فما الذي تفيدنا به مرجعيتنا؟

توفر لنا مرجعيتنا تصورا للكون والحياة والناس قائما على ثلاثة أركان:

- الألوهية وما تتطلبه من توحيد الله، وعبادته، وطاعته، والتسليم له[٢].
- الكون المنبثق عن إرادة الله، المسخر للإنسان[٣]، والمتجاوب معه[٤].
- الإنسان الخليفة في الأرض[٥]، الجامع بين قبضة الطين ونفخة الروح، وما يعنيه ذلك من «أن يسير بجسمه على الأرض، وهو متطلع بروحه إلى السماء»[٦].

ومن ذلك التصور وتلك الأركان تستمد القصة سماتها الأربع الكبرى:

قصة عبادة:

لأن هدفها عبادة الله وحده محققة بذلك مشروعية وجودها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات ٥٦)، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ (الأنعام).

قصة مُسبِّحة ومنسجمة مع التسبيح الكوني:

إذ كل الكون يسبح لله تعالى في إيقاع واحد واتجاه واحد وإن تعددت أشكال تسبيحه، وفي هذه التعددية الموحَّدة الوجهة والقصد تكمن جمالية التعبد في الإحساس بالأنس وسط كون يشاركنا التسبيح، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ... ﴿٤٤﴾﴾ (الإسراء)، وقال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... ﴿١﴾﴾، (الحشر).

قصة الكلمة الطيبة:

لأنها غير فاحشة ولا متفحشة، تؤمن بأن الكلمة مسؤولية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ (إبراهيم)، فمن كانت معه «كلمة طيبة أصلها ثابت كان له فرع في السماء يوصله إلى الله، فإنه سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ... ﴿١٠﴾﴾ (فاطر)، ومن لم يكن معه أصل ثابت

فإنه يحرم الوصول؛ لأنه ضيع الأصول»[٧]، وليس يحرم الوصول فقط بل يحرم الثبات أيضا، لأن «الشجرة الخبيثة قد تهيج وتتشابك ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من التربة الطيبة وأقوى، ولكنها تظل نافشة هشة. وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض، وما هي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض فلا قرار ولا بقاء»[٨].

قصة رسالية:

تتجه نحو الله تعالى بالعبادة والتسبيح، نعم، لكنها في الوقت نفسه تريد لهذه البشرية أن تشاركها التمتع بهذه النعمة، وبهذا الجمال: جمال الكون في انسجامه العجيب وهو متجه نحو ربه بالتسبيح؛ إذ لما كانت قصة عبادة وانسجام مع الكون صار لزاما أن تحمل رسالة« تتضمن دعوة إلى الانسجام مع الكون في توجهه بالتسبيح لله عز وجل، باعتبار هذا التسبيح هو الحل الوحيد لتخليصها من القلق الوجودي، والاضطراب النفسي، والصراع المزعوم» مادامت تدفع البشرية« إلى الإحساس بكونها جزءا من الكون، والتمتع بمشهد كوني فريد من نوعه يتمثل في توجه كل مخلوقات الله بنفس الإيقاع وفي انسجام تام بالتسبيح لله عز وجل كل يوم، وكل شهر، وكل عام، وكل قرن، ومادامت السماوات والأرض»[٩].

ثانيا: الاقتداء الدائم.

من حسن حظ أهل القصة كتابا وقراء أن هذا الجنس الأدبي حظي بما لم يحظ به جنس آخر من عناية القرآن الكريم، وإن كنا نأسف مع الأستاذ محمد قطب أن أجدادنا لم يلتفتوا إلى أهمية ذلك من الزاوية الفنية[١٠]، ويفيدنا ذلك الحيز القرآني من الاهتمام بالقصة من زاويتين:

- يقدم لنا تصورا لها.
- يقدم لنا نماذج عديدة.

ويفرض ذلك علينا أن نجعل القصة القرآنية تصورا ونماذج قدوتنا في الكتابة القصصية.

فالقرآن الكريم يقدم مجموعة من المقاصد لقصه القصص في مقدمتها:

- الدعوة إلى التفكر، قال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.
- التثبيت، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ... ﴿١٢٠﴾﴾ (هود).
- تقديم العبرة والدعوة إلى الاعتبار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ (يوسف).
- الترويح عن النفس، فـ«عن سعد بن أبي وقاص في قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ... ﴿٣﴾﴾ (يوسف). قال: نزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله عز وجل: ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ (يوسف)، تلا إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ... ﴿٣﴾﴾ (يوسف)، فتلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ... ﴿٢٣﴾﴾ (الزمر)، كل ذلك يؤمر بالقرآن»[١١].

وفي رواية أوردها ابن كثير في تفسيره: «مَلَّ أصحاب رسول الله ﷺ ملة فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ... ﴿٢٣﴾﴾ (الزمر)، ثم ملوا ملة أخرى فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن – يعني القصص – فأنزل الله عز وجل: ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ (يوسف)[١٢]. قال ابن كثير: «فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص»[١٣].

ومدار القصة القرآنية على محورين اثنين[١٤]:

- الفكرة/الموقف/ القضية.
- الشخصية/القدوة/النموذج.

فهي تعالج مجموعة من القضايا [١٥]، وتقدم من أجل ذلك نماذج لأشخاص دافعوا عن المبادئ ودعوا إليها وابتلوا في سبيلها، وأمثلة لآخرين حاربوها، ومصير الفريقين معا، ومن ثم لم تكن مستقلة عن نسق عام هو الدعوة إلى الله [١٦]، وهذا«أنشأ جمالا فنيا...ذلك أن عرض هذا الشريط يخيل للمتأمل أنه نبي واحد، وأنها إنسانية واحدة...» [١٧].

وقد وصف سبحانه قصصه بأنها أحسن القصص فقال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (يوسف)، وكون الأمر يتعلق بأحسن القصص يقتضي أنها«خاضعة لتصور ولها وظيفة، فضلا عن أن وصفها بالحسن باستعمال صيغة اسم التفضيل دال على أننا أمام قصص غير القصص،...وذلك الحسن مرده إلى أمرين: طريقة الصياغة التي قدمت بها تلك القصص، وكونها حقا كما تؤكده آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ... ﴿١٣﴾ ﴾ (الكهف)، وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ... ﴿٦٢﴾ ﴾ (آل عمران)، وينبغي - بسبب هذا التَّميُّز - أن تُعامل على أساس أنها حمالة معرفة غير المعرفة التي تحملها قصص البشر، وتلك المعرفة تحتاج منا أن نُجدد وسائل الفهم وآلياته باستمرار لأخذ الدروس من تلك القصص والاستفادة منها... والقصة القرآنية وظيفتها وفق ذلك أن تقدم تجارب الأمم السابقة والأنبياء والصالحين وما لاقوه في سبيل إعلاء كلمة الله، ثم تقدم لهم قصص الجبابرة والطغاة وكيف كان مصيرهم، وماذا ينتظرهم يوم القيامة، يقص القرآن الكريم ذلك كله لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ لعله يسمع فيعقل».

إن مما يجب أن نتعلمه من القصة القرآنية أمورا:

١- أن لا تخرج قصتنا عن فكرة ندافع عنها، أو نموذج نقدمه للناس.

٢- أن تكون قصتنا رسالية، أو ترويحية لاستئناف الرحلة بعدُ.

٣- أن تكون متجاوزة لحدود التاريخ والجغرافيا، عالمية وإنسانية كعالمية مرجعيتها وإنسانيتها.

٤- أن تكون نظيفة وجادة.

٥- أن تتجاوز نقط الضعف إلى نقط القوة، لتعلو شخصياتها بعد هبوط، وتتوب بعد عصيان.

٦- أن توفِّق بين ثبات التصور وتغير البناء عند الاقتضاء.

ثالثا: الخروج من التيه

والتيه هنا تيهان: تيه الأشكال، وتيه الاصطلاح.

أما تيه الأشكال فما نراه من حُمَّى التسابق على الأشكال وتركها، في بحث محموم مستمر عن شكل جديد، وذلك ديدن قوم لا يستقرون على حال، ولا يؤمنون بثابت، وكلما دخلت أمة لعنت أختها، حتى صارت كلُّ أمةٍ شكلٍ

من الأشكال تلعن أمسها، ومع أن مسألة الشكل لا نقاش في أنها متروكة للاجتهاد إلا أن الفرق بيِّن بين البحث الهادئ عن الشكل المناسب وبين «موضة» الأشكال وحُمّاها، فضلا عن حمى المتابعة حتى دخولِ جحرِ الضب. والحال أن مسألة البحث عن شكلٍ ما يقتضي من ضمن ما يقتضيه منح شكل مكتشف فرصة للتجريب والاختمار ليحيا من حيي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة. وأما الجديد من أجد الجديد، وهاجس الترحال الدائم المنفلت فتصورُ سلوكٍ منبت «لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى». والشكل ليس هدفا ليكون هاجسا بكل هذا اللهاث؛ بل وسيلة. نعم وسيلة لها قيمتها، لكن يبقى ما هو أهم منها وهو القصد، ومن تلبيس إبليس أن تتحول الوسيلة إلى قصد، أو على الأقل أن تتحول إلى حاجز يمنع من تحقق القصد.

ثم إن مسألة التغيير المستمر تكشف لنا وجها آخر في تعاملنا مع اجتهادات الآخر تكمن في غياب لمعايير الانتقاء، وأساليب الفحص، لمعرفة الصحيح من الزائف، والنافع من الزبد[١٨]، إذ كثيرا ما كانت تلك الاجتهادات مندرجة في إطار تعقيد التعقيد، حتى صارت مهمة الأدب المعاصر في العالم الغربي «أن يشارك في هذه التعقيدات، ويندب مع النادبين»[١٩]، والعاصم في هذه المسألة ليس الامتناع عن الاستفادة، مثلما ليس هو اللهاث وراء كل جديد، وأدبنا – والقصة جزء منه – « لا يجد أي عائق يصده عن قبول الجديد المتغير ما دام أنه لا يرتطم ورؤيته للكون والعالم والأشياء، ولكنه لن يضحي خلال تقبله ذلك بأي من العناصر الثابتة التي تمثل عصب الإبداع الأدبي وهيكله العظمي – إذا صح التعبير – وإلا غدا العمل الأدبي رخوا متميعا رجراجا، لا يشده رابط، ولا تمسك به شخصية مستقلة متبلورة. إن هناك حدودا للتغيير والتجديد يتوجب أن يقف عندها الأديب الجاد، وإلا سقنا معطياتنا الأدبية إلى الضياع الذي لا تصل في صحاريه المترامية إلى قطرة واحدة من ماء»[٢٠].

وإذا كان من المسلم به أن«الشكل لا يتغير بتغير إيقاع العصر فقط، بل إنه يتغير عندما يفقد وظيفته داخل الأنساق القصصية أو الأدبية عامة»[٢١]، فإن ذلك لا يعني إطلاقا أن مسألة هذا التغيير تتم لمجرد الرغبة في ذلك، ولمجرد الرغبة في التميز، ومن ثم فليس صحيحا أن « الفن القصصي لا يستقر على حال سواء من حيث بنيته القصصية، أو من حيث حواره مع أجناس أخرى»[٢٢]، بل يستقر ما أريد له أن يستقر، ثم يتحول فيه ما يتحول، ويبقى ما يبقى، وعملية التحول هذه لا تكون فاعلة وجادة إلا إذا كانت معقولة وعلى مدى زمني ليس بالقصير، وهما فرقان جوهريان يفصلان بين حدي التطور والتهور، بين تحسين الأداء ومجرد الرغبة في تغيير الأداء، بين البناء الوسيلة والبناء الغاية.

وأما تيه الاصطلاح فيكفي الوقوف على واقعه من خلال نموذج واحد هو «معجم مصطلحات القصة المغربية» الذي أحصى مصطلحات القصة لدى المغاربة من الأربعينيات إلى أوائل التسعينيات، وقد أحصى سبعة وثمانين مصطلحا[٢٣]، وهذا العدد كبير، فهو أولا للمغاربة، وثانيا ليس نهائيا، فضلا عن أن فترة ما بعد مدة الإحصاء عرفت اصطلاحات جديدة ولا شك، بينما عند التمحيص يمكن أن نرجع كل تلك المصطلحات إلى ثلاثة:

- الأقصوصة.
- القصة.
- الرواية.

وبغض النظر عن الفارق بين هذه المصطلحات الثلاثة: أهو كمي أم نوعي؟ فإن الأهم أن نتجاوز فوضى الاصطلاح، وأن لا نكون نحن رقما في هذه الفوضى.

نعم، إن مسألة المصطلح يحسمها الاستعمال، ومنطق البقاء للأصلح بعد تدافع شاق للمصطلحات، غير أننا نحتاج متابعة لهذا المجال، ودراسات في ضبط اصطلاحاته ورصدها، وفي حال غياب ذلك كله يبقى أمامنا أن ننزه أنفسنا عن أن نكون مشاركين في التيه وداعين إليه.

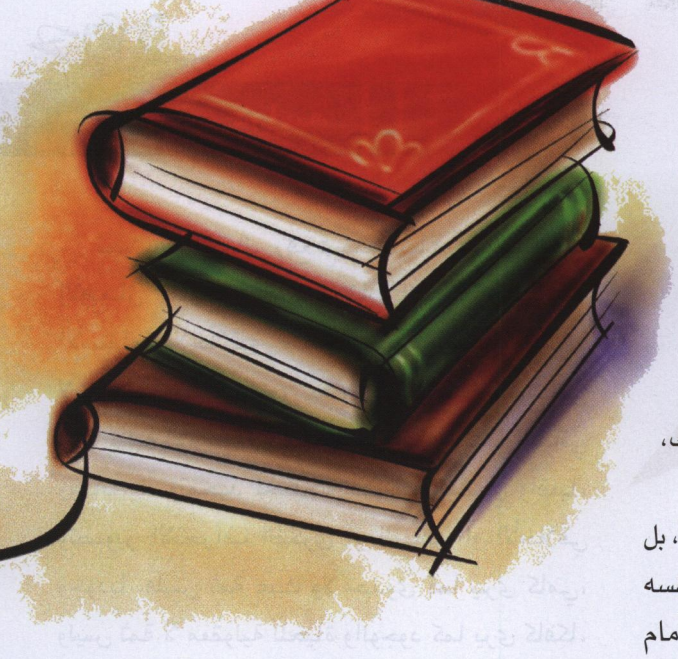

إن تنزيه أنفسنا عن ذلك لا علاقة له بثبات على ما قد يكون متطورا، لأن هاجسنا ليس ذلك؛ بل أن لا تطحننا رحى فلسفة هاجسها الأساس أن تهدم اليوم ما بنته البارحة، وأن تبقى منفلتة مائعة، لا لشيء سوى لأنها تريد أن تظل مختلفة ضبابية وعصية على الإمساك، ما دامت تقتات من ذلك.

وتاريخ بناء الحضارات لا يتأسس على الميوعة والتيه، بل على البناء المستمر الذي يصحح أخطاءه وفي الوقت نفسه يحافظ على مكتسباته، وإلا فلن نكون أمام حضارة، بل أمام سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

رابعا: الفاعلية والإيجابية.

تقتضي الفاعلية والإيجابية أن نكون رساليين في حياتنا وفي مجتمعنا، شاهدين على عصرنا، لا نملك ما دمنا مؤمنين إلا أن نكون كذلك، فآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأحاديثهما ليس بالقليلة، وليسا في مجال القصة سوى مواجهة أشكال الانحراف، والدعوة إلى الهدى والتقوى وفق قوانين هذا الجنس الأدبي.

ولا تكون تلك الفعالية إيجابية إلا إذا كانت على بصيرة، فقد نؤدي رسالتنا، ولكننا لا نحقق النتائج المناسبة للجهد المبذول، فإذا كانت الفعالية بصرا بالدور الذي يجب أن نؤديه؛ فإن الإيجابية بصر بمنهج ذلك الدور مما يسمح بتحقيق النتائج الكثيرة بالجهود القليلة، أي بتوفير الجهود لفاعليات أخرى.

وليس من الفاعلية ولا من الإيجابية أن يكون ديدننا تصوير لحظات الضعف البشري والتوسع فيها بحجة أنها هي الواقع، «إن الإسلام لا ينكر أن في البشرية ضعفا، ولكنه يدرك كذلك أن في البشرية قوة، ويدرك أن مهمته هي تغليب القوة على الضعف، ومحاولة رفع البشرية وتطويرها وترقيتها، لا تبرير ضعفها وتزيينه...قد يلم بلحظات الضعف البشري، ولكنه لا يلبث عندها إلا ريثما يحاول رفع البشرية من وهدة هذه اللحظات وإطلاقها من عقال الضرورة وضغطها»[٢٤].

مهمة القصة لا تكمن فقط في رصد لحظات الضعف، بل في الدعوة إلى تجاوزها، وفي تقديم نماذج نجحت في ذلك، مهمتها ما دامت رسالية أن تهتف«لهذا الكائن بأشواق الاستعلاء والطلاقة»[٢٥]، وأن«تملأ حياته ومشاعره بالأهداف البشرية التي تطور الحياة وترقيها»[٢٦].

كما أنه ليس من مهمتنا منح البطولة لمن لا يستحقها من العصاة والمذنبين، لأن البطولة سمة الصالحين، فـ«لحظة العصيان هي لحظة الضعف والهبوط لا لحظة القوة والارتفاع...ويظل التوجيه الواجب هو الإفاقة منها، والتحول إلى طريق الارتفاع، والضعف البشري ليس هو البطولة التي تستحق التشجيع والتسجيل، وإنما البطولة الحقة هي محاولة البشر الدائمة للخلاص من نقطة الضعف، والانطلاق من ضغط الضرورات»[٢٧].

إن خسارتنا تكون فادحة عندما نجعل العصيان واقعا، والعصاة أبطالا، فمع أن ذلك قد يكون موجودا في واقعنا إلا أننا يجب أن نعلن رفضنا له، وأن وجوده ليس بموافقتنا، وأن جهودنا مركزة في اتجاه تصحيح الوضع، لأننا عندما نُعنى به باعتباره واقعا قائما نمنحه نافذة ليطل منها على عالم آخر، والامتداد في مساحات أخرى، فضلا عن أننا نيسر أمر تقبله نفسيا مما يمهد - شئنا أم أبينا - لجعل وجوده أمرا عاديا.

نحن في حاجة إلى رفع شخصياتنا من « مستنقعات الأفعال القبيحة، والتصرفات الدنيئة، إلى قمة الاستقامة الأخلاقية، فتصير النفوس مطمئنة» [٢٨]، لأن التصور الذي نؤمن به «يأبى الانحراف..يأبى مثلا تأليه الإنسان كلاسيكيا، وإغراقه الذاتي الأناني رومانسيا، وتمجيد لحظات الضعف البشري واقعيا، وتصوير الانحراف الفكري أو النفسي أو الأخلاقي وجوديا..فليس ثمة عبث ولا جدوى كما يرى كامي، وليس ثمة لا معقولية للحياة والوجود كما يرى كافكا، وليس ثمة حرية أخلاقية مطلقة من كل قيد كما يرى سارتر، وليس ثمة تناقضات نفسية لا نهاية لها تنتهي دائما بالضياع كما يرى ديستويفسكي» [٢٩].

وليس من الفعالية ولا من الإيجابية أيضا انشغال القاص بمصارعة الطبيعة ونظمها، فقد رأينا أن قصتنا هي قصة الانسجام مع الكون، وأنها يجب أن تعتبر هذا الكون مسخرا من الله تعالى لها، يسره الله عز وجل لنا لنستعين بما فيه على أداء الأمانة التي تحملناها، وافتعال الصراعات مع عناصر الكون سلوك مجاني لإنهاك لا مبرر له للإنسان، فليس في مصلحة هذا الإنسان أن نشغله بصراعات مزعومة يصارع فيها الأشباح، بينما المفروض أن له عدوا دائما يتربص به الدوائر، وافتعال الصراعات صرف عن الصراع الحقيقي الذي يجب أن يخوضه في حياته اليومية، وصرف عن حقيقة الوجود والهدف والمصير.

وقد نرصد عناصر الانحراف في واقعنا من زاوية كونها انحرافا يجب مواجهته، ولكن الإشكال كامن في أن تستهوينا لحظات الانحراف، ونستغرق جهودنا في وصف قبحها، لأن تلك الجهود تكون على حساب لحظات إشراق في حاجة إلى من يكشف عنها، فإذا كانت عناصر الواقع تتداعى لوأدها فلمَ نُسهم بدورنا في ذلك؟

وكثيرا ما نجيد هدم الانحرافات والخرافات لكننا نظل عاجزين عن تقديم البديل بصورة مقنعة، ومن ثم نمنح تيارات أخرى فرصا ممتازة لجني الثمار، فالمطلوب إذا ليس أن نهدم فقط؛ بل أن نمتلك مشروعا واعيا بعملية الهدم والبناء، وحينها لا إشكال في رصد الانحراف، لأن الصلاح يتحرك على بصيرة في الميدان.

وأخيرا، فالله عز وجل يطالبنا بالمجيء بالحق لا إزهاق الباطل، مع أن المجيء بالحق يقتضي تلقائيا معرفة بالباطل وتمهيدا لانزهاقه: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ (الإسراء)، فمهمتنا أن نحسن تقديم ما نؤمن به، وأن نقدم له النماذج التي تفاعلت معه وأثمرت في واقعنا البشري؛ لأن هذه النماذج هي التي تمنح تلك القيم إمكانية تحققها ومعقوليتها. ومن اليسير أن يستغرقنا وصف الفساد في الأرض، ما دام وصف الظواهر يتطلب جهدا أقل من الجهد الذي يتطلبه منح الصلاح متنفسا، وتقديمه في الصورة التي تليق به في كفاحه المستمر وفي انسجامه مع الكون.

خامسا: الامتداد والانفتاح

عندما تفقد القصة البوصلة تفقد معه استقلاليتها، إذ مدار الاستقلال على وجود مناعة تشكل مقاومة لكل أشكال الانزلاق الحضاري وفقدان الهوية، والطريق إلى هذه الخسارة يمر عبر القطيعة مع الذاكرة، مع التراث؛ لأن قصة بلا ذاكرة ولا تراث قصة بلا مستقبل، فقصة لا جذور

لها قصة مهددة بالاجتثاث، لا ينفعها امتداد فرعها في السماء، من ثم كانت الحاجة ماسة إلى نظرين متوازيين:

نظر إلى التراث يستمد منه ما يمنحه القوة والتميز والخصوصية، ليحمي به ظهره، دون أن يسقط في فخ الانبهار الموقع في رهن الحاضر والمستقبل لاجتهادات الماضي.

ونظر إلى ما عند الآخر والاستفادة من اجتهاداته دون السقوط في فخ الانسياق وراء ما ينتابه من صرعات تُسمع لها جعجعة ولا يُرى لها طحن.

وكلا النظرين حاسم في مستقبل قصتنا، وكلاهما له مزالقه ومهالكه، غير أن الهلكة لا تكون إلا عندما نفقد البوصلة، أي حين نتخلى عن الأسئلة الأخلاقية الكبرى ■

الهوامش:

(١) في التاريخ فكرة ومنهاج، ص: ١١، سيد قطب، دار الشروق، بيروت/القاهرة، ط: ١٠، ١٤١٣/١٩٩٣.

(٢) منهج الفن الإسلامي، ص: ٢١، محمد قطب، دار الشروق.القاهرة/بيروت. ط: ٧، ١٤٠٨/١٩٨٧.

(٣) قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الجاثية).

(٤) مرجع سابق، منهج الفن الإسلامي، ص٢٣.

(٥) مرجع سابق، منهج الفن الإسلامي، ٣١.

(٦) مرجع سابق، منهج الفن الإسلامي، ٣٧.

(٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية١٣/١٦٠: جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم القاضي وابنه محمد، مكتبة المعارف، الرباط، ط، دون رقم وتاريخ..

(٨) في ظلال القرآن، ص: ٢٠٩٨-٢٠٩٩، سيد قطب، دار الشروق. بيروت/القاهرة. ط: ٢٢، ١٤١٧/١٩٩٤.

(٩) الأدب الإسلامي والتدافع الحضاري، الحسين زروق، مجلة البيان السعودية، ع ١٧٢، ذو الحجة ١٤٢٢/مارس ٢٠٠٢، ص: ٥٢.

(١٠) منهج الفن الإسلامي، ص: ١٧١.

(١١) المستدرك، حديث رقم ٣٣١٩، الحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٤١١-١٩٩٠. تفسير سورة يوسف، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وانظر كذلك لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، مكتبة الصفا، القاهرة، ط: ١، ١٤٢٣-٢٠٠٢.خرج أحاديثه أبو عبدالله محمود بن الجميل، ص: ١٥٨، والصحيح من أسباب النزول، عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الذخائر ومؤسسة الريان، ط: ١(١٤٢٠-١٩٩٩)، ص: ٣٢١.

(١٢) تفسير ابن كثير، ١/٤٨٧.

(١٣) المرجع السابق، ١/٤٨٨.

(١٤) يرى الدكتور نجيب الكيلاني رحمه الله أن قصص القرآن ثلاثة أنواع: قصة السرد، وقصة الشخصية، وقصة الفكرة/ الحقيقة. حول القصة الإسلامية، ص: ١٦، نجيب الكيلاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: ١، ١٤١٢/١٩٩٢. وغير خاف أن النوع الثاني متضمن في الأول والثالث.

(١٥) تتبعها سيد قطب وذكر جملة منها، في مقدمتها: إثبات الوحي والرسالة - بيان أن الدين كله من عند الله - بيان أن الدين كله موحد الأساس - بيان أن وسائل الدعوة واحدة - بيان الأصل المشترك بين دين محمد وإبراهيم خاصة، ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة - بيان أن الله ينصر أنبياءه في النهاية ويهلك المكذبين - بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه - تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، انظر: التصوير الفني في القرآن، ص: ١٤٤- ١٥٥.

(١٦) مرجع سابق، ص: ١٤٤.

(١٧) التصوير الفني في القرآن، ص: ١٧١، سيد قطب. دار الشروق، بيروت/القاهرة، ط ١٤١٢/١٩٩٢.

(١٨) نظرية الأدب في ضوء الإسلام، ١/١٢٠. د.عبد الحميد بوزوينة. دار البشير. عمان. ط: ١، ١٤١١/١٩٩٠.

(١٩) تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية، نجيب الكيلاني. دار ابن حزم، بيروت، ط: ١، ١٤١٢/١٩٩١. ص: ١٥٤.

(٢٠) مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، د.عماد الدين خليل. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط: ١، ١٤٠٧/ ١٩٨٧. ص: ١٤٧.

(٢١) الشكل القصصي في القصة المغربية، عبد الرحيم مودن. دار الأطفال، الدار البيضاء، ط: ١، ١٩٨٨. ص: ٨٦.

(٢٢) السابق، ص: ٦٦

(٢٣) معجم مصطلحات القصة المغربية، عبد الرحيم مودن.منشورات دراسات سال، فاس، ط: ١، ١٩٩٣. ص: ١٩-٦٥.

(٢٤) في التاريخ فكرة ومنهاج، ص: ١٦-١٧.

(٢٥) السابق، ص: ١٨.

(٢٦) السابق نفسه.

(٢٧) منهج الفن الإسلامي، ص: ١٧١.

(٢٨) نظرية الأدب في ضوء الإسلام، ١/١٢٣.

(٢٩) مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، ص: ١٢٧.